



The Institute of Ismaili Studies

العنوان: الأخلاق وعلم الجمال في الفنون الإسلامية

المؤلف: تعظيم قسام

المصدر: 'مجلة الإسماعيلي- الولايات المتحدة الأمريكية'، آذار 2006، الصفحات 5-7

ملخص:

ترتقي الفنون فوق تقييدات اللغة والنصوص لتقدم نافذة على ثقافات أخرى. يمكن للجمال الفني وعلم الجمال أن يسافر عبر الوقت والمكان وأن يتجاوز الحدود الثقافية والعرقية. ولكن وفي نفس الوقت، يمكن للفنون أن تعكس قيماً ومثلاً علياً تخص ثقافة معينة خلال زمان ومكان معينين. من خلال النظر إلى الفنون الإسلامية بشكل خاص، تقوم هذه المقالة بإستكشاف العلاقة بين الجمال وما هو مقدس، وبين البحث عن الجمال وتهذيب رغبات وشخصية الفرد، وبين الطبيعة والتنزيل.

تم الحصول على حقوق النشر من الناشر المذكور.

إن استخدام المواد الموجودة على موقع معهد الدراسات الإسماعيلية يشير إلى القبول بشروط معهد الدراسات الإسماعيلية لإستخدام هذه المواد. كل نسخة من المقال يجب أن تحتوي على نفس نص حقوق النشر التي تظهر على الشاشة أو التي تظهر في الملف الذي يتم تحميله من الموقع. بالنسبة للأعمال المنشورة فإنه من الأفضل التقدم بطلب الإذن من المؤلف الأصلي والناشر لإستخدام (أو إعادة استخدام) المعلومات ودائماً ذكر أسماء المؤلفين ومصادر المعلومات.

الأخلاق وعلم الجمال في الفنون الإسلامية

د. تعظيم ر.قسّام
إن الدكتور تعظيم ر.قسّام مؤرخة في الأديان
وتدرس مقررات حول الحضارة الإسلامية في
جامعة سيراكوس. يشمل إختصاصها على التقاليد
الموسيقية والتعبدية لجنوب آسيا، وبشكل خاص
'الجنان' عند الإسماعيليين المسلمين. وهي المؤلفة
المشارك مع فرانكو مالميسون لكتاب الجنان:
'نصوص وسياقات' (أكسفورد: سينشر قريباً)
والمحقق الرئيسي لـ 'بقعة ضوء على التعليم'، مجلة
نصف سنوية تنشر من قبل الأكاديمية الأمريكية
للأديان.

ما هذه الخيمة؟ أيمن لأحد أن يقول هكذا:
محيطٌ مليء باللالئ؟
بالشموع، عشرة آلاف، في وعاء
عاجي براق للغاية؟
[ناصر خسرو- القرن الحادي عشر]

في هذه القصيدة يعبر ناصر خسرو عن شعور عميق بالرهبة أمام جمال الخلق. متأثراً بعمق بالآية القرآنية: "سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم" (53:41) يفكر في كتاب الطبيعة المليئة برموز تشير إلى حضور خالقها. كفرشة تلوين من الكلمات في يد الشاعر، يقرب وصف ناصر خسرو العاطفي لسماء الليل خطوط الحب وإشعاع النجوم بمقارنتها بحس اللالئ اللطيف وتوهج الشمع الدافئ. وبنفس الوقت، من خلال استحضار صورة السماء المضاءة بالنجوم كخيمة بحجم المحيط، ووعاء زجاجي يتلألأ بنقط من الضوء، يبين خسرو عظمة الكون المهيبة.

ترتقي الفنون فوق حدود اللغة والنصوص لتقدم نافذة على ثقافات أخرى. فاتنة العين والأذن، تجتذب الفنون المرء ببسر إلى عوالم غريبة. إن التعرف على ثقافة أخرى عبر فنونها البصرية والأدائية يكون في كثير من الحالات أكثر عمقا وتأثيراً من التعرف عليها عبر كتاباتها وتقاليدها فحسب. تشكل الفنون جسراً بين الناس الذين يعيشون بعيداً عن بعضهم ولا يوجد بينهم ارتباط باستثناء التجارة. يمكن للجمال الفني وعلم الجمال أن يسافر عبر الوقت والمكان وأن يتجاوز الحدود الثقافية والعرقية. كما يمكن أن يخلق روحاً مشتركة بين أشخاص ليس لديهم دين أو عرق مشترك. فمثلاً: في الأندلس كانت الفنون المدجّنة تقدر وتجمع ليس من قبل المسلمين وحسب وإنما من قبل اليهود والمسيحيين أيضاً. وبالتحديد، أعارت الفنون التزيينية نفسها والتي توجد في زخرفة وتصميم الأقمشة والخزف والسجاد والبلاط والأدوات المعدنية والنوافير والقناطر والحدائق للإستخدام الأوسع في المجتمع.

في ذات الوقت، بينما يتجاوز سحر التعبيرات الأدبية الثقافات، تعكس الفنون قيم ثقافة معينة. تعكس الفنون الإسلامية المثل العليا الأزلية للإسلام المعبر عنها في زمان ومكان محددين. تظهر القيم الروحية الخالدة وكذلك المفاهيم المحلية عن الجمال والحرفية. تستخدم الفنون الإسلامية مفهوم الواحد والكثرة: الواحد كمصدر سخي للكثرة، ورجوع الكثرة المبهج إلى الواحد. توجه هذه الفنون الإسلامية الإنتباه إلى قرب الله، وغموضه أيضاً، من خلال تجارب جمالية عبر توسط الحواس، إنها تجارب تستحضر أعجوبة الخلق. غالباً ما يقال بأن الفن في الثقافات الإسلامية يوجد ليس لأجل الفن بذاته وحسب وإنما ليكون مذكراً دائماً بجمال حضور الله. يفهم كل من الطبيعة (خلق الله) والفنون (خلق الإنسان) كإشارات إلى رحمة الله.

في الفنون الإسلامية، يوجد ارتباط بين الجمال والمقدس. إن القرآن مليء بآيات تحض الناس ليشهدوا إعجاز الله الإبداعي اللامتناهي. لا تشير الكلمة "آيات" للآيات المنزلة في القرآن فقط وإنما أيضاً للخلق ذاته. لا تنضب الإبداعية والحكمة الإلهية كما عبّر عنها في الآية: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ" (31:27). ليس خلق الله مستمراً ولا محدوداً وحسب وإنما تجليه بحد ذاته ذو معنى: "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا" (3:191). فالفنون الإسلامية، إذاً، تنطوي على التفكير وذكر الخالق، والخلق، والإبداعية.

يسعى الفنان أن يصير قلماً في يد الله مع أولئك الذين يعاهدون الرسول بالولاء وبذلك يرشدهم الله: "يَذُ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" (48:10). إن صلاة الخطاط هي أن يصبح أداة في يد الله من خلال التسليم، والتركيز، والعبادة المطلقة. ذكر القلم كرمز للإبداع والعقل أيضاً في الآية الأولى التي أنزلت على الرسول محمد: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (96:3). إن فن الخط هذا الأكثر تميزاً وتطوراً بين الفنون الإسلامية، وقد وصف بجدارة على أنه يمثل هندسة الروح. ونقل عن الإمام علي، المعروف بأنه الراعي والمؤسس لفن الخط ومخترع الخط الكوفي، أنه قال: (القرآن بأكمله متضمن في الفاتحة؛ والفاتحة في البسملة، والبسملة في الباء، والباء في النقطة التي تحتها). يتطلب فن الخط ضبطاً وتوازناً وتناسباً ذو إتقان عال، إذ يبدأ من نقطة واحدة ترسم منها خطوط وأشكال ومعان متنوعة لا نهاية لها. ولذا فالخط الأكثر جمالاً هو رمز الدقة ويشير إلى انضباط اليد والعقل والنفس. حياة كل إنسان، بصورة مجازية، هي نص أو عمل فني قيد الإنجاز؛ وكل شخص قلم يكتب أو يرسم حياته أو حياتها. في الحياة كما في الفن، السؤال هو إن كان الفرد، عبر لحظات متكررة من التسليم (الإسلام)، سيكتب حياته ويد الله تقوده.

في الإسلام، هناك علاقة حميمة بين البحث عن الجمال وتهذيب طبيعة الفرد. هنالك دافع أخلاقي للسعي الفني وراء الجمال حيث ينمي الفنان طريقة وجود في العالم تدرك وتحس بدقة التعقيد والإبهام المتأصل للكون. في هذا الصدد، يشارك الفنان مزاج العالم الذي يلاحظ الأشياء بدقة ليفسر طبيعتها الفطرية. إن كلاً من البحث عن الجمال والاستجابة له متجذران في نزعة تنمي مزاجاً ونظاماً خاصاً متيقظاً لآيات الألغاز الإلهية في الآفاق وفي الذات. تُجند جميع الحواس للبحث عن الجمال خلال عملية إبداعها التخيلي وكذلك أيضاً في لحظة تلقيها وتأملها. في الآية القرآنية التي تصف ألبني النفس في حدائق الجنان، اعتبر الجمال والخير واحداً: "فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ" (55:70). إن دور الحواس في إدراك الجمال لدور حاسم، لذا يجب جعل هذه الحواس توافقة من خلال التقوى والطهارة. فالبحث عن الجمال مرتبط بكمال الرغبة والشخصية. يشكل هذا في الفكر الإسماعيلي تحول 'النفس' الدنيا إلى 'الروح' العليا للفرد.

في كتابه 'النوّة'، يؤكد أفلاطون أن التدريب على إدراك الجمال لازم لجعل حياة الإنسان كاملة إذ أنه يقود الذات إلى توجه مناسب في الكون. ويناقش أفلاطون أنه في الحقيقة يكون الأشخاص الذين يملكون الرغبة الأشد لإدراك الجمال أكثر قرباً للمس الخلود. ولكن هذا الإدراك لا يقتصر على التمتع بالأشياء الجميلة. إنما ما هو أكثر أهمية هو أنه يشير إلى إستبصار جمال الأفكار والمشاعر والأفعال والمجتمع. بالنسبة لأفلاطون، إن الهدف المطلق لتدريب شخص ما على إدراك الجمال هو إستنباط الفضائل الحقيقية. وبشكل مشابه، يعتبر علم الجمال الإسلامي أن لإدراك الجمال تضمينات وآثاراً أخلاقية. وبما أن الإستجابة للجمال هي في الوقت نفسه تعبير عن الإمتنان لمصدر كل الجمال فهو يمنح الفرد كرم الروح الأساسي لكل المسؤوليات الأخلاقية. وذلك لأن جميع الفنون، على الإطلاق، تتولد من أفعال الكرم، لأن الفنان يشارك تبصرات إلى الحقيقة لا يستطيع الشخص العادي إدراكها. وكما توسع الكتب آفاق القارئ الذهنية، كذلك أيضاً تدرب الفنون الإسلامية عين المشاهد لتوسع رؤيتها للحياة إلى ما بعد الطيف المرئي.

لذا فالتجربة الفنية طريقة معينة في التعامل مع العالم. أية محاولة في الإبداع الفني من أكثر الأشياء عادية (كقبة الصلاة) إلى الأكثرها إبهاراً (كقصر الحمراء) تتطلب من المرء أن يتأمل في طبيعة الشيء، سواء كانت زهرة، آجرة، صخرة كريستال أو ندفة ثلج. عندما نمر بقرب زهرة قد نراها بدون تفكير، أي دون أن ننتبه بشكل حقيقي لوجودها. بينما ينظر الفنان الذي يمر بالزهرة إليها بشكل مختلف. تلاحظ عين الفنان المدربة على إدراك الجمال والنظم في الأشياء الأكثر عادية، شكل الزهرة الجميل، والنسيج الناعم لبتلاتها، والطريقة التي تلتف حول مركزها، وصفاء وتدرج ألوانها، ورائحتها الشهية والمطفة. من خلال الإهتمام بالزهرة بهذا الشكل يفقد الفنان ذاته فيها، وفي هذه اللحظات القليلة عندما يسلم نفسه لجمالها الفاتن يتلقى أسرارها شاكراً. هذا الكرم الذي تهبه الطبيعة للعين المتبصرة تغير العالم الداخلي وتعبّر عن علاقة مع خلق الله وتحدد كيف يجب أن يتعامل الفرد معها جميعاً بما فيها الزهرة. لذا فهناك الكثير لتتعلمه من صفحات الطبيعة المشبعة بالمعاني كالأيات القرآنية المنزلة. فتعلم إدراك العالم بعين شاكرة يمثل الطريق إلى التواضع العميق ويؤكد على الفرض الأخلاقي المفروض على آدم وسلالته (أي البشرية) بالإهتمام بخلق الله. المبدأ الأخلاقي المحوري للفنون الإسلامية هو أن نعيش وفقاً لحقيقة "فَأَيْنَمَا تُؤْلُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ" (2:115).